الفارستين أسرار روتها التوراة عن تبدل الدنيا وإشراق النور (الجديد) صـ 90 الرواية، ذلك رداً على هؤلاء المهاجمين الذين يريدون إسقاطه ويقول لهم ها أنا ذا لست عبداً لتعنتكم وتحاملكم وإنما أنا ماض في واقعيتي ورومانسيتي وماض لم ينس.. ها أنا ذا ابن هذا البلد «كفر بولين» ومصر أقوى منها وأبدع بارتوائي.

الدكتور محمد كامل حسين

بالقطع عرض «محمد عبدالحليم عبدالله» الكثير من الأسئلة على نفسه بأفكاره المختلفة بين الحين والحين ولزاماً أيضاً أن يصل لنتيجة واضحة مقنعة.. ولا بد أن يقف على هذه النوعية مهما كانت الظروف والأجواء.. فمن هذه الأسئلة:

- ما هو الأديب في كوامن العالم؟
- ما هو العالم في كوامن الأديب؟
- ما هو العالم الأديب الفنان؟

وظل يستعرض من هؤلاء العلماء الأدباء والأدباء العلماء الكثير من خلال أعمالهم.. فاهتدى إلى مؤلف «قرية ظالمة».

كانت زيارته للدكتور «محمد كامل حسين» على ميعاد مسبق للحديث في الأدب.. كان اللقاء في عيادته فرأى:

وجهاً هادئاً.. بعينين تتطلعان إلى أعلى.. تحاط بملامح الوداعة.. فيكون وقوراً غير متزمتاً.. فهو ذا الطبيعة للحياة الجادة المعطاءة الحنونة.. النابضة بكل احترام لكل المحيط بنفس الوقار والجدية والعطاء والابتسامة العريضة التي بها ربما أن يحييك باختصار أو إيماءة أو ابتسامة عينيه كعادته على إجاباته المختصرة.

إشارات تبيح وتفصح.. وتنم أن هذا العالم ينتمي إلى كل ما يصدره.. أو يشير بالضرورة يعتني بالمظهر الخارجي بقدر ما يعتني بداخله.. فكره.. علمه.. مشروعاته العلمية الأدبية.. عباراته دائماً أشبه بالتقارير العلمية.. بالإشارة يتراشق معك الحديث وبالإشارة يحدد معك ملامح الأشياء فقد أحس أن ضيفه «محمد عبدالحليم عبدالله» يود أن يسأله عن حياته فكانت الإجابة على الفور من بين ابتسامة جادة وقورة:

- لكنني راضٍ عن حياتي.
- كل الرضا؟!

- أعتقد أنني لو عشتها مرة ثانية فلن أفعل أحسن من ذلك.

وهذه هي السعادة فهي قبول ورضى ولا تخرج عنهما.

ومن هنا كانت تملكه المعايشة فيما يشغله.. فحينما ترك ضيفه قليلاً ينظر إلى مكتبة مكتبه.. عيناه لا تقولان شيئاً.. كفه تتحرك بالإشارات المختصرة قائلاً:

- ... فلن أفعل أحسن من ذلك.

صمت قليلاً.. هز رأسه.. استكمل وهو لا يزال مشغولاً مهتماً:

- نعم.. لكن شيئاً واحداً ربما أحزنني ولو أنه غير محدد.. كما أحزن بعض الأدباء.

كان «محمد عبدالحليم عبدالله» كعادته إذا ما جلس جلسة أدب.. جلس صامتاً صمتاً متوهجاً مملاً حتى الهمس.. كل شيء حتى يدخل سراديب مجالسيه.. فما بالك

بجلسة أعد لها ولعالم أديب؟!

فأدرك «محمد عبدالحليم عبدالله» بأنه غير قاس.. حنون.. مرهف الحس.. ترتعش مشاعره لأقل نبرة حزن.. أو حاجة.. فيقول «محمد عبدالحليم عبدالله».

– وفي هذه اللحظات القصيرة «من اللقاء» شعرت أن نبرة الأديب الذي أمامي قد تغيرت.. لم يكتف الضيف بالعبارة السابقة بل أضاف:

– لم ترتفع درجة صوته ولم تنخفض وهو يقول هذا «العبارة» نعم.. لكن شيئاً واحداً.. ربما أحزنني.. إلى آخرها» لكن ألواناً من المعاني غلفت كلماته.. وجرت في بشرة وجهه حمرة خفيفة.. فرأيت كيف يستطيع قليل الناس صون ما بداخلهم من فرجة أو ألم.. فصار مبدعنا على إيقاع ما رآه وما سمعه خاصة لكلمة «حنان» التي علقت بأذنه وقلبه بصدى صوت كمن رُدِّدت في قبة مسجد مشغولاً ومقارناً ومتفحصاً فوجد على يمينه باباً مفتوحاً فرأى سريراً لراحة مرضاه ولنومهم عليه وبجانبه كرسياً صغيراً يساعدهم على الصعود إليه. فعلى الفور كانت إجابة للكلمة «حنان» ولا شك إطلاقاً في ذلك والتي ما زال صداها في أذنه.. ولم يلبث قلبه إلا ورأى على قرب منه ديوان الشاعر «عمر بن أبي ربيعة» على الفور جمع «محمد عبدالحليم عبدالله» خياله بكل تكثيف وتجل ليقف على صورة متكاملة للدكتور «محمد كامل حسين» فكانت:

الصورة لأديب متمكن واثق راض سعيد.. بنى وأسس شخصيته.. وأن غذاءه النادر كلفه الكثير.. وبناء شخصيته والبحث عن الغذاء الأساسي دائماً وأبداً لا بد أن يأكل سنوات عمره لأنه ضروري جداً.. جداً.. جداً وحتى أن يعرف الإنسان «الأدب والعلم.. والفن» وهذا هو الدكتور «كامل».

ملحوظة: لم يأت ذلك من فراغ هكذا كان الشاعر الألماني «جيته» الجيولوجي النباتي وأشياء كثيرة جداً كلفته عناء السهر والبحث والرفض والقبول والتحليق في عوالم أخرى.. كل هذا لا لشيء إلا لبناء شخصيته وعلى الفور وجه «محمد عبدالحليم عبدالله» سؤالاً لعالمنا:

– هل ستكتب عنه شيئاً؟ وأشار إلى الديوان.

– سأكتب بعض بحوث كما فعلت مع المتنبي وأبي العلاء.

– كنا نحب أشعاره ونحن شبان.. وطالما تغنينا بها.

– وأنا أحب شعره.. ولذلك سأخضعه للدراسة العلمية.

الهرولة العقلية: بالمناقشات في موضوعات كثيرة بينهما.. العلم والأدب.. الأدب والعلم.. العلم والفن.. الفن والأدب والعلم.. الأسلوبية.. الحدة.. اختيار الموضوعات.. كيفية الكتابة.. لماذا نكتب؟.. وكيف نكتب؟ وهكذا كان جزءاً كبيراً من اللقاء وأيضاً لم يفت مبدعنا أن يعرج على «قرية ظالمة» فقد أعلن عالمنا وأديبنا «محمد كامل حسين» عن أن هناك «الهرولة العقلية التي هي نتاج «سرعة الإنتاج على عجلة مسطحة.. طمس بعض الأعمال من مقوماتها الأساسية والزج بها في سوق العرض.. وأيضاً ذلك تتسم بالطفولة في سن الكبار لأنها مما كان خالية من وضوح الذاتية والشخصية رغم أن هناك بعض المشاهير يكتبون هكذا فهو يرى «محمد كامل حسين» أن سارتر لا يقدم شيئاً نافعاً بالمحاكاة».

فهو يرى أيضاً «أن جيل الثلاثينات كان أكثر تؤدة وثانياً وابتكاراً من الذين لحقوه بعد ذلك» وهو يحب الابتكار أيضاً.

ومن «قرية ظالمة» عرف «مبدعنا» أنها كانت أول عمل روائي لعالمنا «الدكتور كامل» وعرف كيف كتبها

مؤلفها ووقف على كيفية كتابتها فيقول الكاتب:

- كنت أسجل في لحظات الانفعال نتاج ومضاته.. اكتب بلا ترتيب.

- بلا ترتيب؟!

- ربما كان الفصل الأول من القصة هو آخر ما كتبت لأني أودعته هدف الرواية كلها.. ثم أخذت بعد ذلك أرتب الفصول.. ثم قدمتها للمطبعة في 1954.

ملحوظة: هذا العمل «قرية ظالمة» نال جائزة الدولة ولم تكن طريقتها في الكتابة غريبة بل بهذه الطريقة كتبت قصة «ذهب مع الريح».

وكان ولا بد وأن يسأل «محمد عبدالحليم عبدالله» المؤلف.

- أنها بلغت درجة من التركيز جعلتني أقرؤها قراءة الدارس.. فهل هذه طبيعة الكاتب إذا كان عالماً؟

- كل ما أعلمه هو أنني كنت أريد أن أكتب رواية «لا تقرأ في القطار». عمل يقرأ في تمهل ومن المناقشة أيضاً مع العالم الأديب وفي قضايا كثيرة وفي «قرية ظالمة».

وقف مبدعنا على:

أن القصة تدعو للحب والسلام.. صاحبها يحب الإنسان.. فيقول:

- إنني أفضل أن يبحث الإنسان عن أفضل ما في الإنسان وأستطيع أن أقول إن هذا هو سلوكي الشخصي.

وعرف أنه يكره الفضائل المرهقة ولا يؤمن بها وهذه الفضائل هي أن تطلب من الناس ما ليس في إمكانهم.. وهذا عدل.

إنه لا يحمل عتاباً فكيف يحمل كرهاً.

وهنا أخذ «محمد عبدالحليم عبدالله» يقول في نفسه لنفسه: هل هذا أثر من آثار التفكير العلمي؟

ولم يستطع أن يحدث نفسه فقط فرفع صوته سائلاً:

- هل من الممكن أن تحدثنا عن العلاقة بين العلم والأدب بصفتك أخذت من الاثنين بنصيب كبير؟

أجاب:

- العلم في العصر الحاضر على« الخصوص قد وسع آفاق الأدب إلى حد كبير.. لقد أصبح العلم اليوم متصلاً بكل شيء حتى النفس الإنسانية والسلوك الإنساني.

ومن هنا وقف مبدعنا على كل ما كان يهدف بلقائه وأشياء أخرى فعرف:

إذا كانت مادة الأدب وما تتضمنه بكل ما فيها فهذه المادة هي النفس والسلوك، ومن ثم فلا بد أن يستفيد الأديب من «العلم» فإذا ما استفاد الأديب من العلم بشتى اتجاهاته على الأقل صار عالم نفس أكبر وأعلم من عالم النفس نفسه ويصبح خلاقاً مبدعاً لشخوصه إبداعاً متكاملاً بكل الأبعاد لكل شخصية وعلاقاتها بالشخوص الأخرى ويصبح أيضاً أكثر انتشاراً وخلوداً من الآخرين.

«فالعلم يكسب الخيال أجنحة جديدة يجعله أكثر قدرة على التحليق والارتفاع وجَوْب الآفاق والكشف عن البدائع».

وأقول لقد وقف مبدعنا على أشياء تخص العلم والأدب أيضاً في هذا اللقاء أيضاً فإذا ما عرضت هذا السؤال: هل على الأديب أن يلاحق خطوات العلم بخطوات الأدب؟

وأعتقد أن مبدعنا لا بد وأن يجيب إجابة مقنعة خاصة بعد أن جعل العالم الأديب الدكتور «محمد كامل حسين» ضمن عالمه استوثقه بكل ما يملك وأدخله عالمه فصار جزءاً منه بكل إجاباته فتكون الإجابة:

- «العلم ليس الاختراع ولا المخترعات.. العلم هو أسلوب التفكير.. العلم ليس «الحقيقة» بل إن العلم حين يصبح حقائق تحول إلى.. وصار.. وكان.. في حكم المنتهي وأهم ما في العلم ليس هو ما تعلم» بل هو «الطريقة التي توصلك إلى (ما تعلم) العلم الحي هو التفكير العلمي.. وليس المعلومات ومن هنا يؤكد مبدعنا في إجابته على عبارة مهمة جداً هذه العبارة: «الذي يجب أن يتسلح به الأديب هو «التفكير العلمي» ومطلوب من الأديب أيضاً أن يكون على معرفة بميادين العلم فلا بد وأن تكون عنده الفكرة عن ميادينه وليس عن حقائقه، فهي للمتخصص وهنا يؤكد مبدعنا هذه الجزئية الصغيرة الأخيرة فيقول:

يقولون: «إن النزهة هي الطريق إلى الحديقة وليست الحديقة.. فإن العلم هو الطريق إلى العلم وليس المعلومات».

ويتضح جلياً أن هذه الإجابة أيضاً هي الروح الحقيقي وما عرضه وأوضحه عالمنا الدكتور «محمد كامل حسين» في لقاء «محمد عبدالحليم عبدالله» في سبتمبر 1964.

ويكتشف رقة الأديب خلف جدية العالم ويضيف إلى عالمه عالما جديدا لعالم أديب.

بالطبع ما يعقده «محمد عبدالحليم عبدالله» من لقاءات مع أدباء.. وعلماء أدباء وفنانين.. وأدباء علماء وفنانين.. بصفته النائب لرئيس تحرير «مجلة القصة» وأيضاً كأديب يعيش واقعاً ينبت أحلاماً كثيرة لعين ترصد نبض التنفس في كل الاتجاهات لمجتمعنا الذي يعيش فيه ومنه وله مبدعنا.. هذه اللقاءات ليقف على فيما هو على الساحة.. ماض وحاضر وما يجب أن يصنعه ويضعه الأديب في حسبانه وحسب ما هو مطلوب للمجتمع للرقي به إلى المنشود.. فحينما كان اللقاء مع الدكتور العالم الأديب «محمد كامل حسين» وأصبح جزءاً مؤكداً من عالمه فوقف على أشياء كثيرة «اتفق واختلف وعرف وتعلم».

اتفق مع الدكتور على أن يعيش الأديب مجتمعه وأن يعيش المجتمع داخله ففيه الحركة والبناء فتعلو به الأخلاق والمبادئ وعلى الأديب العالم.. والعالم الأديب أن ينمي هذا بكل جهده بشرط: ألا يخاف من القسوة.. ولا يخاف من الحنان.. بل يخاف من التشكيل الهلامي لشخوصه.. فعلى الأديب أن يشكل ويبني شخوصه بناءً واضحاً مدروساً داخلياً وخارجياً من هنا يكون الأديب عالماً نفسياً متمكناً أكثر من العالم المتخصص.. ومن هنا يعود «محمد عبدالحليم عبدالله» إلى نفسه وإلى ما بداخله ويعيد حساباته على ضوء هذا اللقاء وأنه يرغب الانتقال ويحاول جاهداً لمجتمعه إلى درجة أفضل والدليل على ذلك أن الشخصيات التي تنتقل من الريف إلى المدينة وكلها الحنين الذي ينبع من جذورها الأساسية والتي لم تستطع أن تتخلص منها.. فهي إذاً تتفق مع الواقع التاريخي وأصبحت علامة من العلامات التي سجلها مبدعنا «محمد عبدالحليم عبدالله» حيث تحركت هذه الشخصيات من الريف إلى المدينة وبقائها بها بنفس الجذور والأخلاق والقيم والانتماء.. فهنا يصير الأديب عالماً نفسياً أو عالم نفس أفضل من المتخصص حيث: يبني ويؤسس ويشكل ويخلق ويحرك «النفس»

للشخصية بكل وضوح وبوضوح بنائها الحقيقي الواضح وبدراسة واضحة التفاعل مع نفسه ومع الآخرين داخلياً وخارجياً وبكل الأبعاد العلمية..

ففي قصة «ونعم الجزاء» يوضح القلق النفسي الذي ينتاب الملك فيسأل نفسه في نفسه وهو يتقلب في فراشه: «لماذا لا يشعر بأن للسعادة عمقاً؟ لماذا هي هكذا مثل ظل السحاب؟!».

لكنه تنهد وتقلب في فراشه.. ثم نهض جالساً وكانت أنوار قناديل الزيت تتموج في طبقات متهافتة على فراش غرفته الفسيحة.. وبقايا شموع بأطراف سوداء لا تزال في أماكنها بعد إطفائها وجو الليل دفئ.. رآه عندما هصر ستاراً وأطل من النافذة.. طيلسان أسود تحليه النجوم وتفوح من خلاله روائح حديثة لم يغرس الأكاسرة مثلها أبداً».

هذا التعاشق النفسي الوجداني الحقيقي الواقعي الخيالي الذي جعل الملك في هذه الحالة والذي سره بعد هذا القلق والتوتر أن «سمع صيحة ديدبان عن بقعة من السور العالي فتبسم وهز رأسه فعاودته لمسة السعادة التي لا تكاد تبقى على شغاف قلبه إلا بقدر ما يمر الطيف.

ويستمر في هذه المداعبة النفسية الوجدانية للملك حتى ينبئ الملك بأنه «قد شم رائحة الرضا وتنحنح. جفل صبي نهض واقفاً ورأسه في كفه ينظر إليه بعينين متسائلتين تقولان: «من أنت؟» فوضع الملك سبابته على فمه يطلب من الغلام السكوت وهو يتلفت إلى ناحية أخرى من الحديقة لكي يوهم الغلام أن أحداً قادم إليهم.

ملحوظة: لم يترك المبدع هنا حتى الأدوات المستعملة في البيئة وجعلها تلازم الصبي إلا ولقى فأسه؟!!!

بدا على وجه الصبي حيرة.. وأخذ ينظر بحركة لا إرادة فيها وعندئذ قال له الملك هامساً:

- إن الملك سيأتي من هذه الناحية.. هس.. لا تتكلم..

- إذن فلست أنت الملك؟

هز رأسه نفياً فبدأ الهدوء على وجه الغلام.. وبدأ يتحرك مبتعداً عن محدثه وعلى وجهه أمارات من شبع من حديث.. ملّ.. لكن الملك أمسك به من صداريته ليستوقفه فنظر إليه الصبي نظرة من يعاقب على الحرية وشال بعينيه: «لماذا؟!!».

- لماذا لا تنتظر حتى تراه؟

وهنا كان الاختبار النفسي الحقيقي والمقياس الحقيقي بداخل الصبي لكن ذلك بخدعة وإنما هذا كان الملك على موقف غريب لما في داخل الصبي فكان وقع عليه أيضاً له التأثير الواضح.. فكانت إجابة الصبي..

- لأنني لا أشعر برغبة في ذلك !

ساله دهشاً وفي انتظار الموقف الحقيقي.

-

ولماذا؟

فرد عليه ببراءة

- لأنه لا يشعر برغبة في أن يراني..

أدرك أن هذا هو الملك فجرى فجأة وفأسه في يده دون أن يبارح خياله الملك لعينيه كأنه خائفاً على الطمأنينة التي سيأخذها الملك.

وفي اليوم التالي وعند لقاء حبيبته وصف لها آلام نفسه وما وقع عليه من جراء موقف الصبي من الملك والذي لم يستطع أن يمتلك قلبه لعدة دقائق.

من وإلى الضيوف الذين هم تعودوا على أستاذهم في حالة تأخر أو غياب.. أو خروج العميد من الحجرة دارت مع الأستاذ/ فريد شحاتة سكرتيره.. دارت في شئون الأدب والتاريخ.. وكان دائماً «مبدعنا» في هذا المكان في دائرة الضوء وبين الجدران الأربعة التي عليها أفكار أجيال في مجلدات مختلفة الأحجام والألوان.

دخل «العميد» فنهض مبدعنا ليسلم عليه.. كانت بسمته بعرض أفكاره.. لم تستطع الأيام أن تسلبها عبقها فقال له وهو محرج وكأنه يراه لأول مرة ويجلس في «رامتيه»:

- أرجوك يا سيدي.. عندما تضيق بي.. اسمح لي بالانصراف !

كان هذا الرجاء استئذاناً بقبول «الرغي».. والاطناب.. والدردشة.. والخروج على المقتضى الموضوعي للزيارة دون قصد» فيسمح له.

ملحوظة: هذا ما تعود عليه مبدعنا مع العميد من لقاءات سابقة فهما يتعاملان من منطلق.. فلاح لفلاح ريفي.. لريفي أولاً وقبل كل شيء.

ضحك «العميد» في سماحة قائلاً:

- تأكد أنني لن أضيق بوجودك مهما يطل.. ولكنني قد أضيق بالأسئلة.. هذا كل ما في الأمر.

عندئذ صدر الأمر من «العميد» بالتفضل بعرض الأسئلة والموضوعات التي يريد المناقشة فيها فكان السؤال عن قصة «الأيام» التي استولت على قلبه كصاحبها الذي استولى على قلب «عبدالحليم عبدالله» منذ أول لقاء ١٩٤٤ «بلجنة التأليف والترجمة والنشر» بوجود البحراويين «أحمد أمين» و«محمد فريد أبو حديد».

ووقف «مبدعنا» بعد المناقشات والتوضيحات التي لا مجال لها من العرض الآن على:

أنه لا حيلة للمبدع عن الوقوف للإبداع.. فلا بد أن يبدع مهما كانت الظروف.. والتحدث وما يحيط به.. فلكي يتم المخاض للجنين الذي نمّاه داخل أفكاره فلا بد أن يختار له الوقت المناسب والمكان المناسب أيضاً والظروف الملائمة حتى ولو كان خارج البلاد.. وهذا ما حدث فعلاً مع العميد.. حينما كانت أزمة كتاب «الشعر الجاهلي» قائمة على قدم وساق ودخلت البرلمان وهدد عدلي بالاستقالة..

ففي هذه الأجواء كلها بكل ما تحمله من صعاب وصراعات وتهديدات تم المخاض للجنين الجديد الذي اختمر من جزئه الأول في «فرنسا».

ويقول العميد في هذا «لمحمد عبدالحليم عبدالله».

-

لعل أخص خصائص كتاب «الأيام» أنه كتب للهرب من الحياة الواقعة.. تصور.. أنني كتبته هرباً من الحياة الواقعة.. وعندي عودتي وجدت شيئاً هاماً أصابني بضيق شديد هو أنني محتاج إلى النيابة للتحقيق معي في أمر.. ليس كتاب الأيام.. بل في كتاب «الشعر الجاهلي».

فمهما استمرت الأزمات.. واشتد الضيق وضاقت الحلقات أمام المبدع فلن تعطل من إبداعاته.. بل ربما تزيد من إصراره والحرص على إنماء إبداعاته..

ومن هنا كان «محمد عبدالحليم عبدالله» الأديب العالم، وهنا تجسد ووضح الدكتور محمد كامل حسين في عالم «محمد عبدالحليم عبدالله».

العميد

لم تكن المرة الأولى التي يذهب فيها «محمد عبدالحليم عبدالله» إلى «رامتان» فيلا الدكتور «طه حسين» فهو مراراً وتكراراً.. ذهاباً وإياباً إليها ذلك من عام *1944* حينما كان عمره يناهز الثلاثين أو يزيد قليلاً.. وكانت إرهاصاته تتشكل في رواية «إبرسيم» التي لم تنشر بعد منذ أن كتبت عام ١٩٣٥ وهو طالب بدار العلوم قبل التخرج بعامين.

وربما كانت «القيطة» في حكم الانتهاء تسجيلاً ومناقشة والاتفاق على كل أبعادها من خلاله إلا أنه لا بد وأن يلجأ إلى صدر حنون صبور صادق محب لمن يحاول إبداعاً.. ولا شك أن صدر «العميد» خص هذا المبدع الذي اكتشفه «طه حسين» هو حقيقة «وإن جاز هذا التعبير» بقسط وافر من الدفء الحاني القاسي الصادق الموجه لفكر «مبدعنا».. لكن هذه الزيارة والتي كانت في فبراير *1946*.. وبعد صدور روايته «ليلة غرام» أو «القيطة» على الفور أو في نفس الظروف.. لم تكن الزيارة إلا لاستكشاف حقيقة هذا المنجم الذي لا ينضب ولا يمل وهذه كانت جرأة من مبدعنا التلميذ للعميد جرأة عمل للأب الروحي والصدر الحنون.. الأصيل المعدن من طين هذا البلد الطيب أهله الذي لا يخلو عاله منه إطلاقاً حيث أنه يتمتع بدفء عالم ومفكر وتوجيهات معطاءة صادقة صانعة وليس هذا الدفء مقصوراً على «محمد عبدالحليم عبدالله» فقط بل لمن يستحق فالباب مفتوح لأهله فهو المصباح الساهر يرشد محبيه وضيوفه وتلاميذه.. ولمن يحب.. لا ليس «لمحمد عبدالحليم عبدالله» وحده كما كان يعتقد عند بداية الوصول إليه وفي أول لقاء وبحضور ابني البحيرة.. «أحمد أمين» ابن قرية سمخراط مركز المحمودية.. وابن قرية «النجيلة» مركز كوم حمادة «محمد فريد أبو حديد» رئيس «لجنة التاليف والترجمة والنشر» في ذلك الوقت.

يقول مبدعنا:

– ما كنت أحدث نفسي إلا لأشياء هامة جداً وأخاف عليها أو منها ففي هذه الزيارة *1946* كنت أحدث نفسي مقدماً عما سأقوله.. وكان في النفس أشياء كثيرة يمكن أن تقال عندما يرتفع الحجاب بين الأستاذ والتلميذ، ويحس كل منهما أنه جزء في «محيط الحقائق».

حاول أن يجد ويعثر «محمد عبدالحليم عبدالله» لمفتاح يكون المدخل «للعميد» بحث شرقاً وغرباً وطولاً وعرضاً لم يجد إلا «كتاب الأيام» وبقطرة ما بداخله ولأشياء لها العبق الواضح والتي حفرت داخله من ثدي التمني ولبن الأم فقد حددت أفكاره عبارة توضح «تمنى وأمر والده بذهابه إلى القاهرة مع أخيه ليصبح مجاوراً في طلب العلم.. حيث يتمنى والده أن يعيش حتى يراه من علماء الأزهر وعلى رأسه العمامة يجلس إلى أحد الأعمدة ومن حوله حلقة واسعة بعيدة المدى.

كان اختيار «محمد عبدالحليم عبدالله» لهذا المدخل اختياراً له في داخله حياة وذكرى.. فهو لم ينس تمني والدته أن يلبس الطربوش ويكون مثل عمه القاضي.. وأن يقال له «محمد أفندي عبدالحليم ابن جولفدان علي الشيخ» قد وصل فيسرعون لمقابلته ومجالسته في «المندرة» ويكون هو الجالس على «الكنبة».. يرد.. ويقص.. ويشير.. ويفتي.. وتقوم له الناس عند تحركه وفي مقعده الذي تعود عليه كل زيارة جلس.. والمحاورة التي كانت تدار

ونعود «للأيام» فمن الغريب أن نجد الجزء الثاني كتب في نفس المكان «فرنسا» الذي كتب فيه الأول وعلى أزمة أيضاً تسببت في هروب «العميد» إلى فرنسا ليتم مخاض الثاني كل هذا حُفر داخل «محمد عبدالحليم عبدالله» أصبح شيئاً منه وأضيف إليه توضيحات وإضافات وتعديلات وعرف: «أن الهروب من الحياة الواقعية يتسبب للأديب أن يكتب قصة واقعية.. وأن الأزمة قد تخلق البطل وتمنح المعجزة».

وقد ذهبت خواطره لفنان ومبدع في بلد آخر هو «دستويفسكي» هذا المبدع أعطى الأدب كثيراً جداً هذا نتيجة لأزماته.. ومما يؤكد ذلك: «قال لدائنيه وهم يطرقون عليه الباب وهو يكتب: «إنني مدين لكم بأكثر من المال» لأنهم كانوا يدفعونه إلى الكتابة.

ملحوظة: هذا الأديب «دستويفسكي» أيضاً من عالم «محمد عبدالحليم عبدالله» وقد سبقه «تولستوي» أيضاً.

وقد جنح مبدعنا إلى الفصحى والعامية مع العميد فقال العميد لتلميذه المبدع بتأكيد واضح:

- صدقني يا «عبدالحليم» إنهم يظلمون الشعب.. إن هذا الشعب يحب كل الحب أن يقرأ العربية الفصحى وأن يسمع العربية الفصحى.. صدقني.. إنه شعب عميق التذوق.. والتحدث إليه في الفصحى يرفعهم في أنفسهم.. صدقني.

ومن هنا نقف على أن سبب تعصب «محمد عبدالحليم» للفصحى منه دراسته في دار العلوم والتصاقه بالعميد وحب العميد له.

ملحوظة: لم يكتب «محمد عبدالحليم عبدالله» بالعامية حتى آخر عمل له «قصة لم تتم».

داعبت أفكار «مبدعنا» قضية هامة «مسئولية الكاتب» فكان السؤال على الفور:

- إلى أي حد تغيرت مسئوليات الأديب العربي اليوم عنها قبل ذلك؟

ضحك «العميد» ناظراً إلى أعلى مبتسماً مجيباً:

- إنها لم تتغير بل إنها لم تتطور.. الأديب مسئول عما يكتب من جهة.. ومسئول عنه أن يكون ما يكتبه هادفاً إلى أن يرقى بالجماعة من جهة أخرى..

ومسئول أمام القانون.. وتلك أخف مسئولياته.. لأن المسئولية الكبرى هي أن يعرف أنه يجب أن يكتب ليرفع الجماعة.. لا لينحط بها.. هذه هي مسئوليات الأديب.

ومن هنا كان يحمل «محمد عبدالحليم عبدالله» هموم الجماعة لترقى وكيف.. وإلى أين؟

حيث الأدب حاجة ترغم الأديب على الحركة فيتحرك.. وتدفعه إلى العمل ليعمل.. وما من عمل لمبدعنا إلا وبه بصمات العميد وتوصياته على الأدب.. لغة.. وفكراً.. وتمسكاً.. وإصراراً.. على الطريق نسير مهما كانت العقبات والإحباطات والتحديات والتعتمات.. والتجاهلات.. وحتى الشائعات المغرضة المعتّمة.

توفيق الحكيم

وعلى عجالة إذا ما سألنا رأى مبدعنا «محمد عبدالحليم عبدالله» خاصة بعد اللقاء مع مضيفه في مايو 1964 وما أضافه لعالمه من هذا اللقاء في إيجاز شديد جداً عن توفيق الحكيم البحراوي أيضاً والذي لا يسعنا معه مجلداته لفرد وتوضيح حياته فنحن

أهل إقليمه نعرف عنه ما لا يعرفه الآخرون مهما اجتهدوا وأضافوا.

يقول «محمد عبدالحليم عبدالله» في إيجاز كما أشرنا:

إن توفيق الحكيم قادر على أن يشعرك وأنت أمامه بأنك من أهم الناس وأكثرهم معرفة.. في الوقت الذي يكون هو قد أغرقك بمعلوماته.

لا يحملق فيك.. كأنه يتلقى كل ما يقول من وجه يطل عليه من فوق.. وأحياناً يلقي إليك بأنصاف كلمات ويتركك تكمل.. إنه يخاف منك.. وعليك.. وعلى نفسه.. شديد الإحساس بذاته وذوات الآخرين.. فهو يرى أن خدش ثمرة في حديقة جاره تعني خدش ثمار في حديقة داره.. لذلك فعفة العبارة والإشارة والنظرة أبرز صفاته. قد لا يمد لك يد المعونة.. لكنه يواسيك.. ويضفي على تجاربه الشخصية قدسية مبالغاً فيها.

ونحن ألححنا على مبدعنا في عجالة أيضاً وبإيجاز شديد المقارنة بين العمالقة الثلاثة ولو بجملة عن كل منهم وهنا صراحة لنتحسس أين هؤلاء من «محمد عبدالحليم عبدالله» وعالمه وكوامنه فيقول:

- من الممكن أن يكتب طه حسين مذكراته.. وقد كتب بعضها بطريق غير مباشر.. وكذلك فعل العقاد بعض الشيء.. لكني لا أستطيع أن أتصوّر توفيق الحكيم «معترفاً».

ويضيف مبدعنا:

- ولكي تتكلم مع الدكتور «طه» عن ذكرياته العامة فاجذب فقط طرف الخيط.. ولكي تتكلم مع الحكيم عن ذكرياته العامة فابحث عن مهارة «نشال».

وكان العقاد رحمه الله ممن يفيضون ويعترفون إذا ما أثرت غضبه.

فطه حسين يقول ما يريد.. والعقاد يقول أكثر مما يريد.

أما الحكيم فيقول أقل مما يريد.. فطرة !

نقد...

د. صلاح فضل

ومناهج النقد الأدبي المعاصر

شمس الدين موسى
مصر

يأتي كتاب د. صلاح فضل بعنوان «مناهج النقد المعاصر»، ليكمل سلسلة من الدراسات والأبحاث والكتب، صدرت للباحث والكاتب الكبير؛ لكي تحدد ملامح النقد الأدبي العربي المعاصر، بعد أن تجددت خريطة النقد الأدبي في مصر والعالم العربي في العشرين سنة الأخيرة، على أيدي عدد من النقاد والأساتذة الكبار أمثال «شكري عياد، ومصطفى ناصف، وعز الدين اسماعيل، وجابر عصفور»، مع غيرهم من النقاد والأساتذة العرب أمثال «محمد برادة، وسعد مصلوح، ومحسن جاسم الموسوي، وعبدالسلام المسدي... إلخ»، ويأتي بين تلك الكوكبة من الكتاب والنقاد د. صلاح فضل بمجموعة الأعمال التي قدمها للمكتبة النقدية «الواقعية في الإبداع الأدبي، والبنائية في النقد الأدبي، وعلم الأسلوب، وشفرات النص»... وغيرها من كتب تؤسس مع غيرها من المؤلفات لما نسميه النقد الأدبي المعاصر.

ولعل كتاب «مناهج النقد المعاصر» يكون وسيلة - مثل غيره - للباحث الأكاديمي في التعرف على أساطين ورواد النقد الحديث بنظرياتهم المختلفة، بقدر ما هو مفيد للقراء والمشتغلين بالإبداع والكتابات النقدية المختلفة، عبر المعايير والوسائل الأحدث لا في تذوق الأعمال الإبداعية، أو تقييمها فقط، وإنما في النظر لتلك الأعمال كواحدة من وسائل المعرفة، وفق النظرة التي يتناولها القارئ، وهو ما يظهر وظيفة النقد المعاصر بوصفه عملاً - كما يؤكد د. صلاح - تثقيفياً تنويرياً يهدف إلى إشاعة الروح النقدي في مختلف مناحي الحياة والممارسة الاجتماعية، بعد أن خرج النقد من دائرة الفروض الأيدلوجية الضخمة، وهو ما جعله علمياً وصالحاً للتوجه للمستقبل.

ولقد شرع الكاتب في أجزاء الكتاب الأولى في وضع مفهوم محدد لفكرة المنهج وماهيته، ثم تطرق في الأجزاء التالية، ليقدم المناهج التاريخية التي سادت العملية النقدية لسنوات طويلة، مثل المنهج التاريخي، والمنهج الاجتماعي، والمنهج النفسي الأنثروبولوجي، وبعد ذلك يصل بنا الكاتب إلى آخر أقسام الكتاب الذي اختص بعرض واف لمناهج النقد الحديث بالوصف والتحليل عبر النظرية البنيوية، ثم الأسلوبية، والسيميولوجيا، والتفكيكية، ونظريات التلقي والتأويل، ثم انتهى بعلم النص، بوصفه أحدث المناهج النقدية المعاصرة.

«إشكالية المنهج»

والملاحظ أن الباحث عندما يتعرض لمفهوم المنهج، يرى أن ذلك المفهوم ارتبط في ناحية بالمنطق، ومن ناحية ثانية بحركة التيار العلمي في عصر النهضة وهو ما أشاعه ديكارت في كتابه فقال في المنهج «ويقصد به تحديد المنظومة المرتبة، التي يمكن عن طريقها الوصول إلى نتائج منطقية». كما يقسم المنهج النقدي إلى مفهومين - الأول عام، والثاني خاص. والمنهج العام يرتبط بالفكر النقدي ذاته وطبيعته في العلوم الإنسانية. والمنهج الخاص يتعلق بالدراسات الأدبية وطرق معالجتها. وكل منهج لا بد له